علم الأخلاق لسبينوزا

بقلم
الدكتور محمد مصطفى حلمى
أستاذ الفلسفة والتصوف
بكلية الآداب بجامعة القاهرة وبمعهد الدراسات الإسلامية

فيلسوف عقلى ، ذو منزع صوفى روحى ، وصاحب منهج رياضى وأسلوب هندسى ، وهو مع هذا كله إمام من أئمة مذهب وحدة الوجود له خطره وأثره فى تاريخ الفكر الانسانى . خلف آثاراً قيمة كثيرة ، عرضت لمسائل فلسفية ودينية وسياسية دقيقة خطيرة ، ومن بين ما خلف من هذه الآثار كتابه الرئيسى الذى يعد مرآة صادقة لمذهبه ومنزعه ومنهجه ، ولعله اجمع مؤلفاته لما اصطنع من أسلوب ومنهج ، وما نزع إليه من منزع أو ذهب إليه من مذهب .

فأما الفيلسوف الذى كان كذلك فهو باروخ سبينوزا ، وأما الكتاب الذى اشتمل على كل أولئك فهو كتابه (علم الأخلاق) ، وهما ما أرجو أن أوفق فيما سأقدمه عنهما بين يدى قراء (تراث الانسانية) فى الصفحات التالية ، من صورة ، وإن لم تكن تامة كاملة من كل الوجوه ، فلا أقل من أن تكون عامة متكاملة من أكثر هذه الوجوه .

(١)
حياة سبينوزا

ولد باروخ سبينوزا بأمستردام فى الرابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٦٣٢ ، من اسرة يهودية وأصل برتغالى . وقد أراد أبواه أن ينشئاه تنشئة دينية تجعل منه ربياً أو حاخاماً من رجال الدين ، فبعثا به إلى المدارس ، وكان فيها وقتئذ معلم هو حاخام مشهور يدعى مورتيرا Morteira ، فتعلم سبينوزا على يديه العبرية ودرس فى الوقت نفسه اللاتينية والهندسة والطبيعة ، وكان فيما درس وتعلم من هذا كله من الجادين المبرزين .

على أن تعلم سبينوزا للغة اللاتينية كان لأن الحروف العبرية لم ترضه ، فالتمس دراسة اللاتينية لدى طبيب يدعى فان دن إند Van den Ende له مدرسة بأمستردام ، وهذا الطبيب هو الذى درس سبينوزا على يديه أيضاً الهندسة والطبيعة وفلسفة ديكارت الذى جذبته كتبه فانجذب إلى استيعاب

فلسفته ، ومن ثم أضاء فى عينيه نور جديد ، وانكشف مالديه من استعداد عقلى وميل فلسفى . ومنذ ذلك الحين أخـــذ يقال عن ڤان دن إند إنه إنما يبذر بذور الإلحـــاد فى عقول الشباب الذين كان يعلمهم ، وذلك على حـــد تعبير كولبروس Colérus وهو من أهم المترجمين الذين عنوا بترجمة حياة سبينوزا عناية خاصة مفصلة . ولما أن قيل ذلك عن ڤان دن إند اضطر إلى أن يبرح هولندة ، وان يلجـــأ إلى فرنسا . وفضلا عن هـــذا فقد كان لسبينوزا معلم آخر عرضه للشك والشبهة ، وذلك بما أتاح له من تحرير نفسه من ربقة الأحكام السابقة التى كانت شائعة لدى طائفته ؛ ناهيك بما دأب عليه سبينوزا نفسه منذ كان فى الخامسة عشر من عمره من مجادلة لرجال الدين ومحاجة كانت تحيرهم وتفحمهم وذلك فيما كان يدور فيه الحوار بينه وبينهم فى المعبد .

وإذا كان سبينوزا قد أفاد مما درس على أيدى معلميه ، ومن تعاليم التوراة ، ومن أفكار رجال الدين وأحكامهم ، ومن مناظرته الجدلية فى هذه وتلك ، فهو قد أفاد أيضاً فائدة لعلها كانت أعظم خطرا ، وأبعد أثراً ، فى حياته العقلية من ناحية وفى تأليف منهجه ومذهبه من ناحية أخرى ، وأعنى هنا ذلك المبدأ الديكارتى الجليل الذى أخذ به سبينوزا نفسه وراض عليه عقله وأخذ يعمل على بثه واشاعته وهو المبدأ القائل بأنه لاينبغى أن نقبل شيئاً على أنه حق مالم يكن بينا . ومن هنا كانت نظرة سبينوزا إلى آراء رجال الدين وأحكامهم على أنها لايمكن أن تكون مقبولة لدى انسان له بصيرة . وكان طبيعيا أن يضيق به وأن يحنق عليه رجال الدين كما كان لا بد له من أن ينقطع عن الظهور فيما يقام بالمعبد من طقوس ومن أن يستخفى عن أعين رجال الدين وأن يتجنب الاجتماع معهم أو الاتصال بهم .

على أن رد الفعل الذى كان لدى رجال الدين من موقف سبينوزا منهم من ناحية ومن الكتاب المقدس من ناحية أخرى هو أنهم أعلنوا حرمانه من حقوقه الدينية فلم يكن من سبينوزا عندما بلغه نبأ ذلك إلا أن قال لمن نقل إليه الخبر : « نعما إن أحداً لايلزمنى بشىء لا أفعله بنفسى إلا خشية الفضيحة ؛ أما وقد أرادوها على هذا الوجه فأنا أسير مبتهجاً فى الطريق الذى فتح لى ، ولى عزاء وسلوى فى أن مخرجى سيكون أكثر براءة من مخرج العبرانيين من مصر ولو أن رزقى لن يكون مكفولا على وجه خير من رزقهم » .

وإذا كان رجال الدين قد استطاعوا أن يحرموا سبينوزا من حقوقه الدينية ، إلا انهم لم يستطيعوا أن يخرجوه من المدينـــة كما أخرجوه من المعبد ، فلجأوا إلى الدسائس ، وألبوا على الرجل الوادع الوزراء البروتستانت ، وصوروه لديهم فى صورة المكذب بموسى وبالكتب المقدسة ، وبعون الوزراء البروتستانت استطاع القوم أن يظفروا من قضـــاة المدينة بحكم يقضى بحرمان سبينوزا من الإقامة فى امستردام بعد ما كان منه . ولكن هذا الحرمان لم يثر ألماً فى نفس سبينوزا الذى لم يكن له وقتئذ من مطمع بعد أن حصل كل ما كان يرغب فى تحصيله بامستردام من العلوم الانسانية ، إلا أن يخلو إلى نفسه يقرأ ويتأمل ويروى ويفكر ، وذلك فى مكان آخر يجد عنده راحة نفسه ودعة قلبه ونور عقله ، وقد وجد هذا كله فى احدى الضواحى التى أقام فيها خمس سنوات عند صديق له .

وهنا نظر سبينوزا إلى نفسه فإذا هو يرى أنه صفر اليدين من كل مال موروث ، وكل حظ من حظوظ الدنيا ؛ ولكنه نظر إلى نفسه نظرة أخرى ، فإذا هو يرى أنه ليس أقل استقلالا من ديكارت ،

فلم يقبل أن يتقيد بقيد من قيود الوظيفة كالاشتغال بالتعليم العام أو شغل كرسى للاستاذية بجامعة من الجامعات ، ولهذا نراه عندما عرض عليه أن يشغل كرسياً للفلسفة فى جامعة هيدلبرج ، قد أبى مؤثراً حريته وانطلاق فكره على سجيته فيما بينه وبين نفسه من ناحية ، وفيما بينه وبين كتبه التى يقرأ من ناحية أخرى ، وفيما بينه وبين كتبه ورسائله التى يكتب ويؤلف من ناحية ثالثة . ويتبين إيثار الفيلسوف لحريته الفكرية على منصب الاستاذية من رده على الأمير الألمانى الذى عرض عليه هذا المنصب ، وذلك حيث يقول : « لقد حدثتنى نفسى لأول وهلة بأنه ينبغى على أن اتخلى عن العمل على تقـــدم الفلسفة ، وذلك إذا كنت أريد أن اشتغل بتعليم الشباب ؛ ثم حدثتنى نفسى بعد ذلك بأنى لا أعرف أى حـــدود ينبغى على أن أضعها لهذه الحرية الفكرية ....» . وسبينوزا الذى رفض هنا المنصب ، قد رفض أيضاً معاشـــاً أراد أن يمنحه إياه مع الإقامة فى فرنسا أحـــد المعجبين ، وهو القائد الفرنسى كوندى Condé . وإذا كان فى هذا الرفض أو ذاك ما يرضى نزوع سبينوزا إلى الحرية الفكرية وميله إلى الإستقلال بحيث لا يرى لأحد عليه يداً أو سلطاناً إلا أنه كان لابد له مع ذلك من أن يعيش ، وأن يتوفر لديه ما يعيش عليه ، ومن ثم نراه وقد أقبل راضياً على الإشتغال بفن آلى امتاز فيه بالمهارة والإتقان حتى جوده ، وذاعت شهرته فيه حتى لقد كان يقصد إليه القاصى والدانى من كل فج لشراء ما تنتجه يداه من ثمرات هذا الفن وهى عدسات النظارات ، فإذا هو يجد فيما يحصل عليه من الإشتغال بقطع هذه العدسات وصقلها ، ما يكفيه مؤونته وما يقضى حاجته ، وذلك إلى جانب ما كان يصرف فيه الشطر الأكبر من وقته وهو الإشتغال بالتأمل والتأليف فى الفلسفة وحقائقها .

وهكذا عاش سبينوزا على النزر اليسير فى بساطة وسعادة ورضا ، وذلك بالقرب من ليدن تارة ، ثم بالقرب من لاهاى تارة أخرى ، ثم بهذه المدينة نفسها أخيراً ، حيث استأجر حجرة متواضعة وفيها قضى الأعوام الخمسة الأخيرة من حياته . على أن عزلته التى آثرها فى حياته ، وما أثير حوله من شكوك وشبهات فى أفكاره وعقيدته ، وما لقيه من حرمان واضطهاد وإبعاد ، كل أولئك لم يحل بينـــه وبين الشهرة وبعد الصيت ، وإقبال المريدين والمعجبين عليه ، والتفاف الأصدقاء والتلاميذ من حوله . وليس أدل على ذلك من أن ليبنتز Leibniz الفيلسوف الألمانى عند عودته من انجلترا قد زار سبينوزا كما أن چان فيت Jean Witt وهو أحد كبار رجال الدولة فى زمانه قد شرف بتلمذته عليه وصحبته له .

وسبينوزا الذى كان يحيا حياته المتواضعة على ما يقيم الأود ، لم يكن من قوة البنية وسلامة الصحة بحيث يستطيع أن يقاوم الضعف الذى أخذ يوهن منه العظم شيئاً فشيئاً بحكم ما كان يعانيه من مرض السل من ناحية ، ومن مكابدة التأمل العميق ومشقة السهر الطويل من ناحية أخرى . ولعل أكثر ما كان يقضى فيه وقته فى الأيام الأخيرة من حياته هو الحديث إلى عشرائه من أهل البيت الذى كان يقيم فيه إلى جانب ما كان يجريه من مشاهدات بالميكروسكوب لبعض الحشرات . وذات يوم طلع الصبح واجتمع الفيلسوف بعشرائه متحدثين مناقشين كعادتهم ، ثم تفرق القوم وانصرفوا إلى حضور ما كانوا يحضرون من قداس دينى ، وعند عودتهم فى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التمسوا سبينوزا فى حجرته فاذا هم يجدونه ميتاً فى فراشه ، وكان ذلك اليوم الذى وقعت فيه وفاة ذلك الفيلسوف الراضى النفس الوادع القلب الكبير العقل ، هو اليوم الحادى والعشرون من فبراير سنة ١٦٧٧ عن أربع وأربعين سنة وثلاثة أشهر .

(٢)

تراث سبينوزا

كانت حياة سبينوزا قصيرة إذ لم يتجاوز به العمر أربعاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر كما بينا ذلك فى موضعه من قبل . وقد ألم فى حياته القصيرة تلك بعلوم ومعارف شتى ، ووقف على كتب دينية وفلسفية وعلمية عدة، وعكف على دراسة هذا كله إما نقداً وتحليلا لبعضها ، وإما تفسيرا وتأويلا لبعضها الآخر .

على أن حياته على قصرها كانت حياة خصبة غنية بما انتجه الفيلسوف إبانها من الكتب والرسائل وما خلفه من الخطابات التى دارت على كثير من المسائل، وكلها مرآة لما عرفه وأخذ عنه وتأثر به من كتب وعقائد ومذاهب سابقة عليه أو معاصرة له من ناحية، وصورة معبرة أصدق تعبير عن أفكاره وأنظاره ومذاهبه التى ابتكرها هو من ناحية أخرى .

فمما لاشك فيه أن سبينوزا قد بدأ حياته الفلسفية تلميذا دارسا لغيره ، ومحصلا عن غيره ، ومستقيا من غيره ، بما يمتاز به من جدة وطرافة . وها هوذا تاريخ الفلسفة الديكارتية فى العصور الحديثة يحدثنا بأن هذه الفلسفة قد أنجبت كثيرا من الفلاسفة فى كثير من البلاد الأوربية ، وأن من بين هؤلاء الفلاسفة الذين أغرتهم الحركة الديكارتية فى هولندة لم يكن ثمة فيلسوف ألمع إسما وأروع إنتاجاً وأبعد صيتاً مما كان لسبينوزا الذى كان فى فلسفته متصلا بالفلسفة الديكارتية أولا ، ثم منفصلا عنها آخرا ، وذلك بجدة مذهبه وجرأته ، حتى لقد قيل : « إن السبينوزية ليست إلا ديكارتية متطرفة » . وهذا التطرف هو الذى جعل سبينوزا موضعاً للأحكام المتطرفة أيضاً حتى لقد كان سبينوزا فذاً بين الفلاسفة ، إذ ظفر برضا الراضين عنه ، بقدر ما تعرض لسخط الساخطين عليه ، بحيث كان فى رأى فريق شيطانا من شياطين الكفر والإلحاد ، وفى رأى فريق آخر قديسا ينفخ فيه الله من روحه .

وإذا كان ذلك كذلك فقد تعين على الباحث إذن أن يخوض خضم هذه الأحكام المتضاربة لا ليغرق نفسه معها ، ولا ليتأثر عقله بها ، ولكن ليلتمس وجه الحق ووجه الباطل فيها ، وأن يكون سبيله إلى هذا هو الوقوف على ماخلف الفيلسوف من آثار ، والعكوف على دراسة هذه الآثار دراسة موضوعية تحليلية تقوم على الفحص العميق والنقد الدقيق ، بعيداً عن الدعاوى التى وجهت إليهم ، وأثارت الشكوك والشبه ، بحيث ينتهى الباحث المتعمق ، والفاحص المحقق ، والناقد المدقق إلى الكشف عن الحقيقة فى ذاتها عارية عن الأهواء ، نائية عن العواطف التى أملت تلك الدعاوى على أصحابها .

وها نحن أولاء نسلك تلك السبيل مع فيلسوف هولندة الفذ ، فنلم على قدر ما يتسع له المقام فى (تراث الإنسانية) ، بما خلفه سبينوزا من آثار فلسفية ، انطوت على كثير من الأفكار الإنسانية ، مجملين فى عرض هذه الآثار بصفة عامة ، ومفصلين فى الحديث عن كتاب (علم الأخلاق) (Ethique) بصفة خاصة ، فهو أجمع كتب سبينوزا لشتات مذهبه وأصدق مرآة لعقله وقلبه :

(١) (مبادئ فلسفة رينيه ديكارت ، مبرهنة بالطريقة الهندسية) سنة ١٦٦٣ .

Renati des Cartes principiorum philosophiae, Mori geometrico demonstratae, 1663.

وقد شفع سبينوزا هذه الرسالة برسالة أخرى فى (الأفكار الميتافيزيقية Cogitata metaphysica) .

وتعد رسالة سبينوزا فى مبادئ فلسفة ديكارت من أول ما كتبه الفيلسوف ، وإحدى رسائله التى نشرها إبان حياته ، إذ كانت الرسالة الأخرى (الرسالة اللاهوتية السياسية) .

على أن عرض سبينوزا لمبادئ فلسفة ديكارت لايمضى إلا إلى بداية القسم الثالث من رسالته تلك ، حيث كان ينبغى أن تستنبط نتائج المبادئ العامة للطبيعة . ويكاد اصطناع النسق الهندسى الذى قدمه ديكارت نفسه فى رده على (الاعتراضات الثانية) يبدو منبثا فى كل صفحات الرسالة على أنه نموذج حذا فيه سبينوزا حذو ديكارت .

ومن البين أن سبينوزا هنا إنما يعرض فكر ديكارت لا فكره هو ، كما أنه قد جعل من رسالته فى مبادئ فلسفة ديكارت مايشبه أن يكون تمهيداً لفلسفته الخاصة ، إذ ليس من شك فى أن سبينوزا فى سنة ١٦٦٣ قد تجاوز حدود المذهب الديكارتى ، ووضع خطة مذهبه فى كتابه (علم الأخلاق) الذى أطلع وقتئذ بعض تلاميذه على بعض أجزائه . وأكبر الظن أن تكون رسالة سبينوزا فى عرض مبادىء فلسفة ديكارت ثمرة لما كان يقوم به الفيلسوف من تعليم الفلسفة الديكارتية لتلميذ لعله البير بورج Albert Burgh الذى كان يعيش معه حينذاك .

ومهما يكن فى عرض سبينوزا لمذهب ديكارت من دقة وأمانة ، إلا أنه كان يلح بصفة خاصة على المبادىء التى كانت تبدو له ملائمة لمذهبه الخاص ، كما أنه كان يعمد فى بعض المواطن إلى تحوير أفكار ديكارت تارة ، أو إلى تجاوزها تارة أخرى ، حتى تتم له الملاءمة بين هذه الأفكار وبين ما يعنيه هو من أفكاره الخاصة . وعلى هذا النحو نجده فى أحد تنبيهات المطلب التاسع من القسم الأول يوجه الخطاب الى ديكارت فيقول له : — « إن الله ، ولو أنه لاجسمانى ، إلا أنه ينبغى مع ذلك أن يفهم على أنه مشتمل فى ذاته على كل الكمالات التى فى الامتداد » . وثمة نتيجة أخرى من نتائج هذا المطلب ، وهى النتيجة التى تقرر أن الله ، وهو خالق كل شئ ، لا يمكن أن يحس فحسب ، بل لا يمكن أن يدرك على وجه الدقة ؛ وأكبر الظن أن هـذا الكلام لا يوجـد مثله على مثل هـذا الوجه عنـد ديكارت .

على أن الاتجاه الذى ينطوى عليه هذا الكلام فى رسالة مبادئ فلسفة ديكارت ، يوجد أيضاً فى رسالته الأخرى فى (الأفكار الميتافيزيقية) التى نشرت عقب رسالة المبادئ الديكارتية ، ووضعها سبينوزا مشفوعة بها على أنها بمثابة الإيضاحات على مسائل مختلفة فى الميتافيزيقا الديكارتية . ومهما يكن من أن سبينوزا يبدو فى هذه الرسالة أو فى تلك تلميذاً من تلاميذ المدرسة الديكارتية ، إلا أنه كثيراً ما يخلى بين مبادئه الخاصة وبين الظهور من حين إلى حين ، ولعله كان يعنى بهذا أن يهيئ العقول لفلسفة أجرأ هى تلك التى يعرضها فى آثاره الأخرى بصفة عامة ، وفى كتابه (علم الأخلاق) بصفة خاصة ، وذلك على الوجه الذى سنراه معه فى موضعه بعد .

(٢) (الرسالة اللاهوتية — السياسية — سنة ١٦٧٠ Tractatus Theologico-politicus 1670) : وهى الرسالة الثانية التى نشرت إبان حياة سبينوزا ، وقد كتبها الفيلسوف فى وقت كان الجدل فيه محتدماً حول مسائل الوحى والنبوة والمعجزات وحرية الاعتقاد ، كما أنه جد فيها واجتهد فى تأويل التوراة تأويلا عقلياً مهتدياً فى هذا التأويل بما يشعه العقل من أنوار ، وما يكشفه من أسرار . وقد نظر كثير من خصوم سبينوزا إلى هذه الرسالة على أنها خلاصة للأفكار الضالة ، وسبيل إلى الكفر ؛ ومن هنا نستطيع أن نفسر ما يبديه سبينوزا من أسف ، وما يعانيه من ألم ، مصدرهما هذا النقد العنيف الذى تعرض له ، وهذا الطعن المجحف الذى وجهه خصومه إليه .

(٣) (رسالة فى الله وفى الإنسان سنة ١٦٦٠ Tractatus de Deo et homine, 1660): عرض فيها سبينوزا فلسفته الخاصة ، وكتبها لأصدقائه المسيحيين ، وضاع أصلها اللاتينى ، ولكن حفظت لها ترجمتان هولنديتان نشرتا سنة ١٨٥٢ . ويمكن أن تعد هذه الرسالة بمثابة المسودة لكتاب (علم الأخلاق) .

(٤) (رسالة فى إصلاح العقل Tractatus de Intellectus Emendatione) : وقد تركهـا سبينوزا دون أن يتمها ، ولكنها نشرت على ما هى عليه بعد وفاته ، وهى من قبيل المدخل إلى المنهج من ناحيـة ، وإلى التعرف على قيمة المعرفة من ناحية أخرى ، مثلها فى هذا وذاك كمثل (الآلة الجديدة Novum organum) لفرنسيس بيكون ، وكمثل (قواعد تدبير العقل Règles pour la direction de l'Esprit) ، و (مقال عن المنهج Discours de la Méthode) وكلاهما لديكارت ، و(البحث عن الحقيقة La Recherche de la Vérité) لما لبرانش . وهذه الكتب كلها ترمى إلى غاية واحدة هى الاستعاضة بها عن (الآلة = Organon) القديمة التى وضعها أرسطوطاليس ، وضمنها كتبه المنطقية فكان اسم (الآلة) عنواناً لها ، وعلماً عليها .

على أن لرسالة سبينوزا فى إصلاح العقل قيمة أخرى غير قيمتها المنهجية ، ذلك بأنها بمثابة المفتاح الذى تفتح به أبواب المذهب السبينوزى كلها ، كما أنها تعد بمثابة المقدمة أو التمهيد لكتابه الرئيسى فى (علم الأخلاق) ، ناهيك بأنها نموذج كامل قليلا ما يوجد له مضارع فى التحليل الفلسفى .

(٥) (الرسالة السياسية سنة ١٦٧٥ – سنة ١٦٧٧ Tractatus politicus, 1675-1677) : كتبها سبينوزا فى أواخر حياته ولم يتمها ، ولكنها نشرت على ما هى عليه بعد وفاته . وهذه الرسالة كتاب عام فى السياسة العقلية ، فيها وسع الفيلسوف نطاق المبادىء التى وضعها فى رسالته اللاهوتية السياسية . فتناول بالدرس والتحليل المفصلين كلا من الملكية المسـتبدة والأرستقراطية والديمقراطية .

(٦) (الخطابات) : وقد ترك سبينوزا طائفة صالحة منها كتبها إلى مراسليه من أصحاب الشخصيات العلمية البارزة الذين كان من أشهرهم ميير Myer ناشر آثار سبينوزا بعد وفاته وأولدنبرج Oldenburg سكرتير الجمعية الملكية للعلوم بلندن . على أن خطابات سبينوزا ، وإن لم يكن لها حظ من الذيوع والانتشار بقدر ما كان لخطابات ديكارت ، إلا أن لبعض تلك الخطابات أهمية كبرى من حيث ما تناولته من موضوعات فى الرياضيات والكيمياء والبصريات وصقل العدسات ، فضلا عما يتناوله أكثرها من موضوعات فلسفية وأخرى تتعلق بتأويل الكتب المقدسة : ومن هذه ما يعد شروحاً قيمة على مسائل وردت فى كتاب (علم الأخلاق) : فليس من شك فى أن من أهم وأمتع الخطابات التى من هذا القبيل الخطاب ٢٩ فى « اللامتناهى » ، والخطاب ٤٢ فى « التمييز بين الماهية والوجود » ، والخطاب ٤٥ فى « البرهان على وجود الله » ، والخطاب ٤٩ فى « الله والمصائر والنجاة » ، والخطاب ٧٤ فى « معارضة المذهب الكاثوليكى » :

(٧) (علم الأخلاق على النهج الهندسى Ethica Ordine Geometrico Demonstrata) : وهو أهم كتب سبينوزا وأصدقها تصويراً لمذهبه ومنهجه ، وقد اشتغل الفيلسوف بإعداده وتأليفه وتنقيحه طوال سنين عدة من حياته ،ولكنه لم يجرؤ على نشره إبان حياته خشية الفتنة ، فنشر الكتاب بعد مماته . على أنه كان يطلع خاصة أصدقائه وتلاميذه على الأجزاء التى كان يتمها ، وذلك ليدرسوها ، ويبدوا رأيهم فيها ، ويكتبوا له

بما يعرض لهم من مشكلات ، بشرط ألا يطلعوا أحداً على تلك الأجزاء من الكتاب إلا بعد الاستيثاق من خلقه . ولقـد بالغ سبينوزا فى هذا الضن بالكتاب على عامة القراء حتى شملت مبالغته الخاصة من الفلاسفة ، إذ لم يبح لأحد ممن أطلعهم على الكتاب أن يظهر ليبنتز Leibniz وهو الفيلسوف الذى له شأنه على شىء منه . وظل سبينوزا ضناناً بكتابه (علم الأخلاق) على ليبنتز حتى توثقت بينهما الصلة ، فاذا هو يتيح له فرصة الإطلاع عليه والنظر فيه .

(٨) (مختصر فى النحو العبرى Compendium grammatices Linguae hebraeae) : وضعـه سبينوزا بعد رسالة اللاهوتية السياسية وهو كما يبدو من عنوانه ليس كتاباً فى الفلسفة أو اللاهوت أو السياسة ، وإنما هو موجز ناقص فى قواعد اللغة العبرية ، إلا أن بين بعض ما ورد فيه وبين المذهب الفلسفى لسبينوزا صلة ما : ذلك بأن الفيلسوف يلح فيه على أن العنصر الأول والجوهرى للغة هو الإسم لا الفعل ، وأن المعنى الأصلى الذى تنطوى عليه الألفاظ هو الذى لا يدل على حال أو فعل ، وإنما على شىء أو جوهر ؛ وهذه نظرية وإن كانت موضع جدل ومناقشة من ناحية فقه اللغة ، إلا أن صلتها بالميتافيزيقا السبينوزية ظاهرة .

هذه جملة المصنفات التى يتألف منها التراث الفلسفى والدينى والسياسى للفيلسوف الهولندى ، وكل هذه المصنفات قد نشر باللاتينية فيما عدا رسالة واحدة هى الرسالة الموضوعة فى (الله والإنسان وسعادته) على نحو ما سبقت الإشارة إلى هذه الرسالة فى موضعها من الحديث عنها آنفا . ونحن إذا تدبرنا ما خلفه سبينوزا من آثاره الفلسفية والدينية والسياسية تلك ، ألفينا طابع الجدل يكاد أن يطبعها جميعا : فرسالة (الأفكار الميتافيزيقية) و (الرسالة اللاهوتية السياسية) وبعض الأجزاء الأولى من كتاب (علم الأخلاق) ، كل أولئك يدور فيه الجدل على الكيفية التى يمكن أن تقوم بها الأخلاق مع نظام الضرورة الكلية ، وعلى ما يصير إليه اللاهوت والدين مع هذا اللون الجديد الذى يقدمه سبينوزا لتأويل الكتب المقدسة : ذلك بأن سبينوزا ، سواء فى رسالته اللاهوتية السياسية أو فى خطاباته ، لاينكر الكتب المقدسة على الإطلاق ، ولكنه يؤولها على طريقته التى استحدثها واصطنعها حتى مع شخص المسيح عليه السلام ، وذلك على الوجه الذى نتبينه معه مما كتبه فى أحد خطاباته إلى أولدنبرج حيث يقول : « إن المسيح هو أسمى مرتبة من مراتب تجلى الحكمة الإلهية فى هذا العالم » .

٣

كتاب سبينوزا فى علم الأخلاق

يعد كتاب سبينوزا فى (علم الأخلاق) أهم كتبه وأدلها على منهجه ، وأجمعها لكل نواحى مذهبه ، فضلا عن أنه يوضح ويفصل كثيرا من أفكاره وانظاره التى وردت غامضة أو مجملة أو مشارا إليها فى كتبه ورسائله الأخرى .

وفى هذا الكتاب يصطنع سبينوزا منهج الرياضيين فى الهندسة ، ويسرف فى اصطناع هذا المنهج ، حتى لقد جاء كتابه أشبه بكتب علماء الهندسة منه بكتب الفلاسفة . وليس أدل على هذا من أن الكتاب كله ليس إلا طائفة من التعريفات والبديهيات والمسلمات والمطالب والبراهين والنتائج ، وما إلى ذلك مما يصطنعه علماء الهندسة فى كتبهم ورسائلهم ، وفى حل معضلاتهم ومسائلهم .

واصطناع سبينوزا للمنهج الهندسى على هذا الوجه لم يكن بدعا فى العصر الذى عاش فيه هذا الفيلسوف ، إذ كان ينظر فى ذلك العصر إلى المنهج الرياضى على

أنه نموذج ينبغى أن يحتذى فى العلوم كلها : فهوبز Hobbes الفيلسوف الإنجليزى الذى عنى سبينوزا بدراسته عناية خاصة ، قد رد المنطق كله إلى الحساب العددى ؛ وديكارت Descartes الفيلسوف الفرنسى الذى اتخذ منه سبينوزا فى أول عهده بالتفكير الفلسفى قدوته حتى لقد كان مؤثراً له ، متأثراً به ، مقبلا على فلسفته وعلى عرض مبادئها فى أولى رسائله ، قد قدم مثلا واضحاً لتطبيق المنهج الرياضى والصورة الهندسية على جزء من أجزاء ميتافيزيقاه . وهذه الصورة الهندسية هى التى آثرها سبينوزا ليعرض فيها أولا مبادئ فلسفة ديكارت ، ثم ليعرض فيها بعد ذلك أفكاره هو وأنظاره فى فلسفته الخاصة . ولعل مذهب سبينوزا كان أطوع للصورة الهندسية من مذهب الفلاسفة التجريبيين ، ومن مذهب بعض الفلاسفة العقليين ، لأن مذهب سبينوزا ينحى التجربة ، ويريد أن يستنبط كل شئ من فكرة أولى مستمدة من العقل .

على أن الآلة الرياضية ، وإن كانت نافعة ومحققة لفوائد كثيرة بصفة عامة ، وأكسبت منهج سبينوزا ومذهبه بعض خصائص جدتهما وطرافتهما بصفة خاصة ، إلا أنها قد أفقدت هذا المذهب وذلك المنهج كثيراً من وضوحهما وإبانتهما ، إذ ليس من اليسير على الناظر فى كتاب (علم الأخلاق) لسبينوزا ، وفى غيره من الكتب التى نحت نحوه ، وألبست الثوب الهندسى مثله ، أن يدرك الأفكار فى تسلسلها وتتابعها . وها هوذا ليبنتز Leibniz الفيلسوف الألمانى يتحدث عن سبينوزا فيقول : « إن سبينوزا لا يبدو دائماً معلما عظيما فى فن البرهان ، وإن عقل هذا المؤلف ليبدو معقداً ملتوياً ، وإن من النادر عنده أن يسلك الطريق الواضح الطبيعى ، وإنه ليؤثر الطرق الوعرة والمسالك الدائرية الطويلة ، وإن براهينه إنما هى مما يحير العقل أكثر مما ينور . . . . وإنه أحياناً ما يتلاعب بالبرهان . . . . » ، (نشر هذا النص فوشيه دى كارى Foucher de Careil سنة ١٨٥١).

ومهما يكن من شئ ، فقد عرف سبينوزا نفسه مساوئ المنهج الذى اصطنعه ، وذلك فيما يصرح به فى ذيل الجزء الرابع من كتابه (علم الأخلاق) حيث يقول : « إن المبادىء التى وضعتها فى هذا الجزء الرابع للطريقة التى يحيا بها الإنسان حياة أفضل ، ليست معدة البتة على نسق من شأنه أن يتيح إدراكها بلمحة بصر واحدة ، حتى يستخرج بعضها من بعض على وجه أيسر ، فقد كنت مضطراً إلى أن أشتتها قليلا ، ومن ثم أصبح من الضرورى أن ألم شعثها مرة أخرى هنا على نسق مطرد ، وذلك بأن أرد هذا العرض كله إلى طائفة معينة من المبادئ الرئيسية » . وهكذا نرى أن سبينوزا لكى يعالج هذا التقطع الذى كان سبباً فى غموض فكره ، قد اضطر إلى أن يتناول براهينه من جديد ، وأن يتحدث عنها فى لغة متسقة وعبارة مؤتلفة من قبيل ما يتحدث به الكتاب والمؤلفون عادة ، حتى تبدو الروابط على وجه أحسن ، وفى صورة أوضح ؛ ناهيك بأنه يأسف لأنه لم يتحدث دائماً فى هذه اللغة الرصينة الحية التى صاغ فيها بعض الشروح scolies والتذييلات appendices مما عقب به على بعض المطالب propositions والبراهين Demonstrations وذلك عند ما كان يأخذ نفسه بالازورار عن لغة علماء الهندسة ومنهجهم . ومهما يكن من شئ مرة أخرى فإن الصورة الهندسية ليست من فكر سبينوزا إلا بمثابة الظرف أو القالب الذى صب فيه هذا الفكر العبقرى ، وأن الخير كل الخير إنما هو أن نوغل فى فكر سبينوزا نفسه ، وأن ننفذ إلى أعماقه فى

ذاته بصرف النظر عن هذا القالب أو تلك الصورة ، فنعريه من هـــذه الصيغ الهندسية التى من شأنها أن عوقته عن الوضوح والإبانة ، وأضفت عليه ثوباً من الغموض والابهام ، فهنالك تبدو الأفكار متصلة ، والأنظار متسقة ، والمذهب متكاملا فى صورته المؤتلفة .

ذلك هو منهج سبينوزا فى كتابه (علم الأخلاق) وتلك هى مساوئ ذلك المنهج . أما الكتاب فى ذاته ، وفى أجزائه التى يتألف منها ، وفى موضوعاته التى يشتمل كل جزء عليها ، فهذا كله ما أرجو أن أوفق فى الوقوف عنده ، والإلمام به ، والإبانة عنه ، فى الصفحات التالية :

يتألف الكتاب من خمسة أجزاء : الجزء الأول فى الله ، والجزء الثانى فى طبيعة النفس وأصلها ، والجزء الثالث فى أصل الانفعالات وطبيعتها ، والجزء الرابع فى عبودية الإنسان أوفى قوة الانفعـــالات ، والجزء الخامس فى قوة العقل أو فى حرية الإنسان . ويلاحظ هنا أن موضوع الجزءين الرابع والخامس هو علم الأخلاق ، ولكن سبينوزا أطلق اسم (علم الأخلاق) على الكتاب كله ، لأن العمل عنده هو غاية النظر من ناحية ، ولأن منزعه الرئيسى إنما كان منزعاً أخلاقيا من ناحية أخرى ، وإن مثله فى هذا المنزع كمثل الرواقيين إذ كان النظر عندهم سبيلا إلى العمل أو كان العمل فى فلسفتهم غاية للنظر .

ولكى تتبين لنا القيمة الكبرى التى لهذا الكتاب فى ذاته ، والخطر العظيم الذى له فى تراث الإنسانية يحسن أن نقف معه ومع مؤلفه وقفة عند كل جزء من أجزائه ، بحيث تتضح معالمه الرئيسية وخصائصه الجوهرية ، وموضوعاته الميتافيزيقيـــة والنفسية والأخلاقية :

الجزء الأول

فى الله

أفرد سبينوزا الجزء الأول من كتاب (علم الأخلاق) للحديث عن الله ، ذاته وصفاته وتجلياته ، وعما يتصل بهذا كله فى الإنسان والعالم ، واستهل هذا الجزء ، كما استهل غيره من الأجزاء الأخرى بطائفة من الحـــدود أو التعريفـــات والبديهيات والمسلمات التى قدمها بين يدى ماهو بسبيل البرهنة عليه من المطالب ، وكل أولئك قوام للأسلوب الهندسى الذى ساد الكتاب كله ، على نحو ماسبقت الإشارة إلى ذلك آنفاً .

ولعل أهم الحدود أو التعريفات التى فى مستهل هذا الجزء ، هو هذا التعريف الذى له خطره فى تاريخ الفلسفة الحديثة بصفة عامة ، وفى فلسفة سبينوزا بصفة خاصة ، وفى ميتافيزيقاه بصفة أخص ، وأعنى به تعريف الجوهر الذى يحده سبينوزا بقوله : «أعنى بالجوهر هذا الذى يوجد فى ذاته ، أو بعبارة أخرى هو هذا الذى ليس تصوره مفتقراً إلى تصور شئ آخر عنه يجب أن يكون وجوده » (علم الأخلاق : جـ ١ تعريف (٣)) . ثم يتحدث سبينوزا عن الله باعتباره جوهراً متأحدا ولا متناهيا وضروريا أو واجب الوجود بذاته ، كما يتحدث عن الموجودات التى تملأ أرجاء الكون على أنها أحوال أو أشكال أو صور أو هيئات (Modes) لهذا الجوهر (Substance) الأوحد أو الله ، كما يبرهن على وجود الله باعتباره جوهراً واجب الوجود بذاته ، ولامتناهيا فى ذاته ومتأحداً مع ذاته ، وله عدد لامتناه من الصفات (attributs) اللامتناهية . وها هنا يبين سبينوزا أن اللامتناهى على أنواع ، كما أن لفظ اللامتناهى يستعمل فى الاصطلاح بمعنى يدل على أنه صفة ذاتية للشىء المتصف به تارة ، وبمعنى يدل على أنه وصف

عددى للشيء وقد تكثرت أفراده فهى لامتناهية فى عددها لا فى ذاتها .

أما من حيث تطبيق هذا المعنى الاصطلاحى أو ذاك على الجوهر الذى هو الله عند سبينوزا ، فإن الفيلسوف الهولندى يستعمل كما يبدو لفظ اللامتناهى بالمعنيين ، إذ للجوهر الإلهى عنده صفات لامتناهية فى ذاتها ولا متناهيـــة فى عددها ، إلا أننا لا نعرف من هذه الصفات التى هى كذلك غير صفتين جوهريتين هما فى متناول عقولنا ، وهاتان الصفتان الجوهريتان هما الفكر (La pensée) من ناحيـــة ، والامتداد (L'étendue) من ناحية أخرى .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن سبينوزا يرى أن الله من حيث هو جوهر ، فهو مفكر من ناحية ، وممتد من ناحية أخرى ، وهو وإن كان ممتدا إلا أنه لا جسمانى . وعنده أن الله من حيث هو مفكر ، فإن فكره لا محدود ، وأن موضوعه هو الوجود اللامحدود ، أو الكائن اللامتعين (L'être indéterminé) . وإذن فليس لله عقل بالمعنى المألوف ، ولا له فهم على الوجه المعروف ، لأن الفهم على هذا الوجه ، والعقل بذاك المعنى ، إنمـــا هما إسمان يطلقان على ملكة أو وظيفة من ملكات الفكر الإنسانى المحدود ووظائفه ، وهذا أو ذاك ليس من طبيعة الذات الإلهية اللامتناهية فى كل شيء بصفة عامة ، وفى صفتيها الجوهريتين وهما الفكر والامتداد المطلقان عن كل حد أو قيد أو تعين بصفة خاصة . ومثل هذا يقوله سبينوزا عن الإرادة : فكما أن الله ليس له عقل أو فهم بالمعنى الإنسانى المعروف أو المألوف ، فهو ليس له إرادة أيضاً بهذا المعنى أو ذاك ، لأن الله ليس له موضوع محدود أو معين تتعلق به إرادة مقيدة بهذا الموضوع المحدود المعين .

وإذا كان الله فى ذاته ، وهو الطبيعة الطابعة (La nature naturante) كما يسميه سبينوزا ، ليس له عقل ولا إرادة ، إلا أن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بالله منظوراً إليه فى سياق النظام الضرورى لطبيعته ؛ وهذا يعنى بعبارة أخرى أن الفكر بالفعل والشعور ليس لهما مكان إلا من خلال الفيض الضرورى لصفات الله ؛ أو هو يعنى بعبارة أوضح أن الطبيعة الطابعة هى العالم أو الله باعتباره جوهراً أو مبدأ ، بخلاف الطبيعة المطبوعة (La nature naturée) وهى العالم أو الله ، ولكن من حيث هو مجلى (manifestation) أو ظاهرة (Phénomène) . وينتهى سبينوزا إلى أن الطبيعة الطابعة هى الجوهر بصفاته على حين أن الطبيعة المطبوعة هى جملة الأحوال أو الأشكال أو الصور أو الهيئات التى للجوهر .

واسبينوزا الذى يعد الفكر والامتداد صفتين جوهريتين لذات الله ، ينظر كذلك إلى الحرية على أنها عين ذات الله ، أو عين فعاليته (activité) اللامتناهية فى نفوذها إلى كل صور الوجود الممكنة حتى تبلغ ذروة اللامتناهى وفقاً لقوانين ضرورية ، ولا ينظر إلى الحرية على أنها صفة من صفات الله ، إذ الحرية عنده هى أن يفعل الكائن بمقتضى قوانين طبيعته الذاتية وحدها ، وذلك على الوجه الذى نتبينه معه من تعريفه للحرية حيث يقول : — « يقال لهذا الشيء إنه حر إذا كان موجوداً بحكم الضرورة النابعة من محض طبيعته ، وكانت ذاته وحدها هى التى تسيره فى أفعاله . ويقال لهذا الشيء إنه ضرورى أو مضطر مجبر إذا كان شيء آخر هو الذى يسيره فى وجوده وأفعاله ، وذلك بنسبة ثابتة وشرط معين » . (علم الأخلاق : حـ ١ ، تعريف ٧) .

وكأن سبينوزا فى فهمه للحرية على هذا الوجه ، يربط الله والإنسان بروابط الضرورة ، كما يرى أن كل ما يفعله الله إنما يصدر عن طبيعته ضرورة على هذا الوجه الذى هو عليه ، وذلك على نحو ما هو

الشأن فى المثلث إذ يقال عنه إن جملة زواياه مساوية لزاويتين قائمتين ، فان المساواة بين جملة زوايا المثلث وبين الزاويتين القائمتين إنما تنشأ من طبيعة المثلث ؛ ومن هنا لا يمكن أن يكون كل ما فى العالم على وجه آخر ، ولا على نظام آخر ، لأن كل شىء قد عينته وحددته الطبيعة الإلهية ، سواء فى الإنسان أو فى العالم ؛ وإذن فالفرق بين الضرورى الواجب الوجود بذاته (nécessaire) وبين الحادث الممكن الوجود بذاته الواجب الوجود بغيره (contingent) ، ليس له وجود فى الحقيقة ، وإنما هو آت من جهلنا بماهية الأشياء وبنظامها الكلى .

والعالم الذى يصدر ضرورةً عن ذات الله ، ينبغى أن يكون له أعلى درجة من درجات الكمال الممكن ، على حين أن الله ذاته ينبغى أن يكون له أسمى درجة من الكمال المطلق . وها هنا يتبين أن سبينوزا من أصحاب مذهب التفاؤل (optimiste) ، مثله فى هذا التفاؤل كمثل ديكارت ومالبرانش وليبنتز ، ولكن مع هذا الفارق الجوهرى ، وهو أن سبينوزا يقيم مذهبه فى التفاؤل لا على أساس من حكمة الله وعنايته ، بل على أساس من ضرورة طبيعته . وهذا يعنى بعبارة أخرى أن سبينوزا يرى أن النظام العجيب للعالم ليس ناشئاً من فعل علة عاقلة ، ولكنه ناشىء من وحدة جوهر الأشياء كلها ، ومن اتحاد كل الأعراض أو الهيئات مع عين الجوهر . أما أن فى العالم نقصاً أو نقائص ، فهذا راجع إلى خطئنا نحن فى تقدير كمال الأشياء تقديراً يتفاوت بتفاوت منفعتنا ، ويوافق ما يلائمنا ، بدلا من أن ينبنى تقديمنا على حسب طبيعة الأشياء فى ذواتها ، وبمقتضى ماهيتها الذاتية .

على أن سبينوزا الذى نظر إلى الله على أنه الطبيعة الطابعة التى تصدر عنها أو تفيض منها الطبيعة المطبوعة ، قد أنكر مذهب التشبيه (Anthropomorphism) ، سواء فى هذا الجزء الأول من كتابه (علم الأخلاق) أو فى (رسالته اللاهوتية السياسية) : فهو ينكر فى شدة وسخرية وقوة فى البيان فكرة إله ذى ميل أو هوى يتقلب مع ميوله وأهوائه ، ويتبدل مع خططه وأغراضه ، ويريد شيئاً ثم يريد نقيضه أو عكسه أو ضده ، ويثور ويسكن ، ويندم وينتقم ، فكل أولئك وغيره من ضروب الانفعالات ، التى تجعل لله غاية من الغايات ، إنما هو فى نظر سبينوزا حديث أساطير وخرافات : ذلك بأن الله الذى ليس لوجوده بداية ولا نهاية ، ليس لأفعاله كذلك علة خارجة عن ذاته تصدر عنها ، ولا غاية غير فائضة من ذاته تنتهى إليها . وها هنا يستفيض سبينوزا فى نقده لفكرة العلة الغائية ، وفى تجريحه للقائلين بها ممن يزعمون أن لأفعال الله دوافع وعللا فاعلية وأخرى غائية ، مثلها فى هذا كمثل أفعال الإنسان ، الأمر الذى يجعلهم يغرقون فى الوهم الباطل إذ يجعلون لأفعال الله دوافع شبيهة بدوافع أفعالهم ، وحرية من قبيل حريتهم ، فإذا هم يهذون فى الأضاليل ، ويضلون فى الأباطيل .

فإذا عرفنا كل ما تقدم ، فقد انتهينا مع سبينوزا إلى التذييل الذى ختم به الجزء الأول من كتابه (علم الأخلاق) ، حيث يصطنع أسلوباً ممتلئاً بالجرأة والثقة فيما يتحدث به عن تفسيره لذات الله وطبيعته وصفاته وصلته بالانسان والعالم ، فإذا هو يفصل المجمل ، ويوضح المشكل ، على وجه نتبين معه أن إلهه هو الوجود كله ، أو هو كل الوجود فى كل مراتبه ، وليس ثمة خارج ذاته وصفاته شىءٌ آخر يستحق أن يطلق عليه اسم « الجوهر » ، لا بمعنى أن كل شىءٌ به فحسب ، ولا بمعنى أن كل شىءٌ فيه فحسب ، ولكن بمعنى أن كل شىءٌ هو عينه . إنه العلة الفاعلية (Cause efficiente) لوجود كل

الأشياء وماهيتها ، ولكنه أيضاً العلة المفيضة (Cause immanente) التى لا تنفصل عن المعلول ، والتى يسكن أو يكمن فيها المعلول ، كما أنه عين الفعالية ، وعين الحياة ، فى أسمى وأكمل درجاتهما ، وأوجبها للشمول الذى لا يخرج عنه أى شئ ، وللفيض الذى يصدر عنه كل شئ .

الجزء الثانى

فى طبيعة النفس وأصلها

إذا كان سبينوزا قد عرض فى الجزء الأول من كتابه (علم الأخلاق) للطبيعة الطابعة على أنها هى الله ، فهو هنا فى الجزء الثانى يعرض للطبيعة المطبوعة على أنها هى الإنسان ، ولهذا نراه ينبهنا بادىء ذى بدء إلى أنه لايزمع أن يفسر الطبيعة المطبوعة بأسرها أى كل الأشياء التى لاحصر لها ولا يتناهى عددها ، والتى تفيض ضرورة من صفات الله ، وإنما هو يتناول بهذا التفسير ما عساه أن يوصلنا إلى معرفة النفس الإنسانية وطبيعتها ، وكل ما تمتلىء به من ملكات وأفكار على أنها هيئات أو أحوال لله من حيث هو جوهر مفكر ، كما أن كل الأجسام إنما هى هيئات أو أحوال لله من حيث هو جوهر ممتد ؛ ومن هنا لم يشغل العلم الطبيعى إلا حيزا ضئيلا عند سبينوزا ، بالقياس إلى ما يشغله هذا العلم عند ديكارت .

وإذا كان ذلك كذلك فكيف ولدت الطبيعة الطابعة الطبيعة المطبوعة ؟ وكيف تولدت الأشياء المتناهية من أحضان الشىء اللامتناهى ؟ الحق أن هذه المسألة أو تلك لا وجود لإحداهما أو لكلتيهما عند سبينوزا الذى لا ينكر فكرة الخلق فحسب ، بل ينكر فكرة التوليد أيا ما كان أيضا : ذلك بأنه يرى أن الصفات الإلهية بكل مالها من هيئات إنما توجد منذ الأزل ، مثلها فى هذا كمثل الجوهر الإلهى إذ هو يوجد منذ الأزل بكل ما له من صفات ، إذ أن الأشياء الجزئية أو الفردية من حيث هى مكونة بواسطة هذه الهيئات ، فهى مساوقة لله الذى له هذه الصفات التى تفيض منها هذه الهيئات ، وإذا كان الله سابقا عليها ، فليس هذا السبق فى الزمان ، ولكنه فى الطبيعة والرتبة ، لأنه لا يمكن أن يتصور أن الله كان من غير العالم ، كما لا يمكن أن يتصور أنه كان بدون صفاته وهيئاته .

وينبنى على هذه المقدمات كلها أن كلا من النفس الإنسانية والجسم الإنسانى هيئة لصفة من صفات الجوهر الإلهى ، أعنى أن النفس الإنسانية هيئة لصفة الفكر الإلهى ، وأن الجسم الإنسانى هيئة لصفة الامتداد الإلهى وقد نظر سبينوزا إلى هاتين الهيئتين وهما النفس الإنسانية من ناحية ، والجسم الإنسانى من ناحية أخرى ، على أن بينهما تبادلا أو توازيا ، كما نظر إلى الصلة بين الأفكار فيما بينها من جهة ، وإلى الصلة بين الأشياء فيما بينها من جهة أخرى ، على أن بينهما مثل هذا التبادل أو التوازى الذى بين النفس والجسم ، وكما نظر بعد هذا كله إلى الإنسان على أنه هيئة مركبة من الفكر والامتداد الإلهيين . ويمكن أن يقال بعبارة أخرى من عبارات سبينوزا نفسه أن النفس فكرة أو سلسلة من الأفكار للفكر الإلهى ، وأن الجسم فكرة للنفس ، والنفس فكرة للجسم تقابل كل منهما الأخرى أو تتوازى كل منهما مع الأخرى . وكل أولئك ينتهى بسبينوزا إلى أن ثمة إتساقا سابقا (Harmonie préétablie) بين النفس والجسم ، وأن هذا الإتساق تحكمه الضرورة التى هى شرط لا بد منه عند هذا الفيلسوف لكل ما يصدر عن الطبيعة الإلهية . وهنا ينتهى سبينوزا أيضا إلى أن هذه الصلة الضرورية بين النفس والجسم ، أو بين كل جسم وبين فكرته ، إنما تؤدى إلى أن لكل جسم نفساً ، وأن الطبيعة بأسرها

حية ، وهذا يعنى أيضا أن كل الكائنات التى فى الكون حية ، ولكن على درجات متفاوتة .

وبعد نظرية النفس وصلتها بالجسم ، وقف سبينوزا فى الجزء الثانى من كتابه (علم الأخلاق) عند الهيئات المختلفة التى تتألف منها النفس الإنسانية ، مبتدءا بالمعرفة ، وهاهنا ننتقل مع هذا الكتاب من علم الوجود (الأنطولوچيا) إلى علم النفس (البسيكولوچيا) الذى يختلف عند هذا الفيلسوف عما هو عليه عند جمهرة الفلاسفة الذين عرضوا لعلم النفس : ذلك لأن سبينوزا إنما يستقى كل عناصر علمه فى النفس من من طبيعة الله وصفاته ، بحيث لا يعول على استمداد شىء من المشاهدة الباطنية أو الشعور الإنسانى الذى تقوم به وتدور عليه هذه المشاهدة الباطنية ، إذ أن النفس كما يتصورها سبينوزا ليس لها ملكات ، وإنما كل ما لها هيئات . ويترتب على هذا أن العقل والإرادة والحساسة إنما هى مجرد ألفاظ لا معنى لها ، أو هى محض تجريدات لاغناء فيها ، وأن هيئات الفكر هى وحدها التى لها حقيقة وجودية ما .

أما ما هى هيئات الفكر هذه ، فان سبينوزا لا يسأل عنها الشعور النفسى ، وإنما هو يسأل فكرة الله التى يستنبط منها درجات المعرفة المختلفة ، أو هيئات المعرفة والشعور نفسه . وإن نظرية المعرفة عند سبينوزا لتبدو لأول وهلة وكأنها تجريبية ، على نحو ما هو الشأن فى نظرية المعرفة عند كل من هوبز Hobbes وجساندى Gassendi . ومهما يكن فى قول سبينوزا من أن الجسم الإنســـانى هو فكرة النفس الإنسانية والموضوع الوحيد لها ، من مسحة تجريبية ، إلا أن الجسم الإنسانى هو هيئة من هيئات الامتداد الإلهى ، ومن هنا ينطوى على فكرة الجوهر الإلهى نفسه ، وهذا هو ما ينفرد به سبينوزا ، من دون التجريبيين ، وتمتاز به نظريته فى المعرفة من خصائص مثالية (idéaliste) ، على الرغم مما يبدو فيها بادىء ذى بدء من خصائص تجريبية (Empirique) .

والمعرفة هنا فى الجزء الثانى من كتاب (علم الأخلاق) على درجات ثلاث هى التى أوردها سبينوزا فى رسالته (فى إصلاح العقل) على أنها أربع ؛ وقد استحالت هذه الدرجات الأربع إلى ثلاث لأن الدرجتين الأوليين توحدتا فى درجة واحدة هى درجة الأفكار الجزئية غير التامة (inadéquates) الملتبسة (confuses) ، والفكرة غير التامة هى التى لا تساوى موضوعها ، على حين أن الفكرة التامة (adéquate) هى التى تساوى موضوعها . وتمتاز الفكرة التامة بأنها هى وحدها الواضحة وضوحاً كاملا ، والصادقة صدقاً تاماً ، والحقيقية حقاً ، واليقينية يقيناً مطلقاً (vraie) : فالمعرفة الآتية عن طريق الحواس والمخيلة معرفة غير تامة ، على حين أن معرفة الله ليس فيها فكرة غير تامة البتة ، ومن هنا كان الفرق بين أفكار الله وبين أفكار الإنسان فى أن أفكار الله كلها تامة على حين أن بعض أفكار الإنسان غير تامة ، ومن هنا يأتى أو يقع الخطأ فى المعرفة الإنسانية ، هذا الخطأ الذى يعرفه سبينوزا بأنه ليس إلا ضرباً من الحرمان من المعرفة ، أو الإغراق فى الجهل بحقائق الأشياء وعللها الحقيقية .

وإذا كانت المعرفة الآتية عن طريق الحواس والمخيلة معرفة ظنية ملبسة ناقصة فإن المعرفة الحاصلة فى العقل أو المحصلة بالعقل معرفة يقينية واضحة كاملة . وهذا يعنى بعبارة أخرى أن الحواس والمخيلة ترينا الأشياء بعين الحدوث والإمكان (contingence) ، على حين أن العقل يرينا ها بعين الوجوب والضرورة (nécessité) والديمومة (éternité) ، وهذه العين من شأنها أن تلبس الأشياء صورة الحق والصدق ، على حين أن تلك العين من شأنها أن تلبس الأشياء صورة الخطأ

والباطل . ولهذا يتعين على النفس التى تريد أن تخلص من اللبس والخطأ ، أن تعمل على الإنسلاخ من نطاق الجزئى ، وأن تسمو إلى آفاق الكلى . وها هنا تتبين الدرجتان الأوليان للمعرفة : الدرجة الأولى وهى المعرفة الحسية ، والدرجة الثانية وهى المعرفة العقلية إحداهما تقف عند الجزئى الخاص ، والأخرى تتجاوز هذا الجزئى الخاص إلى الكلى العام .

على أن الوصول إلى الكلى العام إنما هو بطريقين : أحدهما طريق الاستدلال أو التعميم غير المباشر أو بالواسطة (médiate) الذى يتخذ نقطة بدئه من المشاهدة ، والآخر طريق الحدس (Intuition) أو التعميم المباشر أو بلا واسطة (Immédiate) ، وهذا الضرب الأخير من ضروب المعرفة هو الدرجة الثالثة من درجاتها ، وهى أكمل الدرجات جميعاً ، والنفس التى تصل إليها هى أكمل النفوس جميعاً ، إذ ترى كما لو كانت ترى بعين الإشراق (Illumination) ، ترى فى كل جسم الامتداد الإلهى ، وترى فى كل فكرة الفكر الإلهى ، ترى فى كل صفة من الصفات الجوهر اللامتناهى الذى هو عين ذات الله ، ترى هذا كله على هذا الوجه فإذا هى فيما ترى وتتأمل من الجوهر الإلهى تمتزج معرفتها بمعرفة العقل اللامتناهى وهو عقل الله ذاته (علم الأخلاق : جـ ٢ ، مطلب ٤٤ — ٤٦) . وكما أن هذه الدرجة هى أعلى درجات المعرفة ، فهى كذلك أسمى مراتب الفضيلة والسعادة ، وذلك على الوجه الذى سنتبينه مع سبينوزا عندما نعرض لمذهبه الأخلاقى فى الجزءين الرابع والخامس من كتابه (علم الأخلاق) . وهكذا نرى مما يقدمه سبينوزا من نظريته فى المعرفة أن النفس الإنسانية ، وقد اتخذت موضوع معرفتها من جوهر الله أو ذاته ، تستطيع أن تسمو ، وأن تصل إلى هذه الدرجة العليا من المعرفة : لأن الجسم الذى تتأثر به وتؤثر فيه وهو موضوع فعلها وانفعالها ، إنما يعبر عن ذات الله . وهكذا نرى أيضاً أن أخص خصائص نظرية المعرفة السبينوزية هو أنها نظرية لا تتخذ محورها الرئيسى من الأنا الإنسانى (Le moi) ، بل من الفكر الإلهى اللامتناهى ، إذ ليست النفس الإنسانية هى التى تروى وتفكر ، وتعرف وتدبر ، وإنما الله وحده هو الذى يروى ويفكر ، ويعرف ويدبر فى هذه النفس الانسانية أو تلك .

ويميز سبينوزا بعد هذا كله بين الفعل (action = agir) وبين الانفعال (Passion = Pâtir) ولكنه يحصر الفرق بينهما فى الوضوح واللبس اللذين يتفاوتان قوة وضعفاً فى معرفتنا بعلل أفعالنا وانفعالاتنا : فالنفس تكون فاعلة حينما تتصور بوضوح ما ينتج عن طبيعتها ، وهى تكون منفعلة عندما تعرف هذه العلل فى لبس ، إذ أن كل الأفعال تصدر عن أفكار تامة واضحة ، على حين أن كل الانفعالات تصدر عن أفكار غير تامة ملبسة . وهذا يعنى بعبارة أخرى أن النفس فى الفعل تكون مسيرة بالضرورة النابعة من طبيعتها ، على حين أنها فى الانفعال تكون مسيرة بالضرورة النابعة من الطبيعة الخارجية ، ولكنها على الحالين مسيرة بالضرورة أبداً . ومن هنا كانت نظرة سبينوزا إلى إيمان الناس بالحرية على أنه ليس إلا وهماً من الأوهام الباطلة الشائعة ، وإنه لوهم قائم على الجهل بالأسباب والدوافع الحقيقية ، وراجع إلى العلم علما ناقصاً غير واضح بهذه الأسباب .

وفى نهاية الجزء الثانى من كتاب سبينوزا فى (علم الأخلاق) ، نراه يحتفى احتفاء حماسياً له روعته بنتائج مذهبه الأخلاقى لاسيما فيما يتعلق بالفضيلة والسعادة القصوى من ناحية ، والسكينة والطمأنينة العليا من ناحية أخرى : ذلك بأنه يذهب إلى أن

دوام افتقارنا المطلق إلى الله وإلى ضرورة الأشياء ، من شأنه أن يجعلنا نضع معه السعـادة القصوى والبهجة العظمى فى معرفة الله ، وثواب الفضيلة فى الفضيلة نفسها ، كما يجعلنا نتقبل الحسن والسئ من الحظ ، ويطهرنا من الشنآن والحسد لغيرنا ، والازدراء والاستهانة بغيرنا ، ويعلمنا أن نقنع بما لدينا وأن نكون عوناً لغيرنا . وهذه الثمرات اليانعة الرائعة لمذهب سبينوزا فى الأخلاق هى التى جد فى تغذيتها وتنميتها فى الأجزاء التالية من هذا الكتاب على وجه نظر منه إلى فلسفته ، فإذا هو يرى أنها هى الطريق الوحيد الذى يؤدى إلى الفضيلة والسعادة .

الجزء الثالث

فى أصل الانفعالات وطبيعتها

استهل سبينوزا الجزء الثالث من كتابه (علم الأخلاق) بتمهيد قدمه بين يدى دراسته لأصل الانفعالات وطبيعتها ، فصرح فى هذا التمهيد بادئ ذى بدء بأنه سيصطنع فى هذه الدراسة نفس المنهج الذى اصطنعه فى دراسة الله والنفس الإنسانية ، أى أنه سيدرس انفعالات الناس ورذائلهم وحماقاتهم على نحو ماتدرس الخطوط والسطوح والأحجـام ، لأن تلك الأشياء ليست أقل حظاً من الخصائص الطبيعية من هذه ، ولا هى أقل فى خضوعها لقوانين الكون العامة من بقية الأشياء . وهاهنا نرى سبينوزا يعيب على الفلاسفة الذين عرضوا من قبله للانفعالات ، أنهم جعلوا من الإنسان دولة فى داخل الدولة ، ونظروا إليه على أنه من القدرة على قهر الانفعالات بحيث يصبح من شأن الإنسان وهو هذا الكائن الوهمى أن يخل بنظام الكون ، فضلا عن أنه فى نظرهم كأنه ليس جزءاً من هذا الكون . وفى رأى سبينوزا أنه مهما كان من جمال وروعة فيما كتبه أولئك الفلاسفة عن الهيئة التى تكون عليها الحياة المثلى ، إلا أن أحداً منهم لم يحدد الطبيعة الصحيحة للانفعالات ، ولا مالهذه الانفعالات من سلطان على النفس ، ولا مالهذه النفس من سلطان على تلك الانفعالات ، ومن ثم كانت شكوانا مما عليه حالنا ، وكانت كراهية الناس وازدراؤهم ، وكان فوق هذا وذاك هذا الذم الرائع فى بلاغته الذى وجه إلى النفس الإنسانية على أنها قاصرة عاجزة ، كأن هناك رذيلة مافى الطبيعة ، وكما لو لم يكن كل شئ داخـلا سواء بسواء فى النظام الكلى للكون ، ولا راجعاً فى إيجاده إلى قوانين ضرورية .

وبعد هذا التمهيد أخذ سبينوزا فى عرض تعريفاته وبديهياته ومسلماته ومطالبه وبراهينه ونتائجه التى هى جماع العناصر التى تتألف منها دراسته لأصل الانفعالات وطبيعتها : فهو قد عرف الانفعال بأنه يعنى به تغيرات الجسم التى بها تزيد أو تنقص قوة الفعل فى الجسم ، فإما أن تكون عونا ، وإما أن تكون عائقاً ، كما يعنى به فى الوقت نفسه أيضاً الأفكار المتعلقة بهذه التغيرات (علم الأخلاق : ج ٣ ، تعريف ٣) . وهذا يعنى بعبارة أخرى من عبارات سبينوزا نفسه أننا لو استطعنا أن نكون العلة التامة لهذه التغيرات لكان معنى الانفعال الذى يعنيه هو أنه هو الفعل ، وإلا لكان هو الانفعال (علم الأخلاق : ح ٣ ، شرح) . ومن هنا يمكن أن يقـال مع سبينوزا أن الانفعال هو الفكرة الملبسة أو هو هيئة من هيئات الفكر تتمثل فى الجسم أو فى بعض أجزائه ، أو هو قوة من قوى الوجود ، تزيد أو تنقص عما كان لهامن قبل .

أما أصل الانفعال فان سبينوزا قد استطاع أن يصل إليه ، فاذا أصل الإنفعالات جميعاً عنده ، ليس فى الجسم ، ولا فى الأعراض الخارجية ، بل هو فى جوهر النفس عينه ، وبهذا امتاز سبينوزا عن ديكارت . أما ما هو هذا الأصل أو المصدر الذى

تصدر عنه وترد إليه كل الإنفعالات ، فهو عند سبينوزا الطلب أو النزوع أو الرغبة (Le désir) . وهذا يتبين إذا لاحظنا معه أن فى النفس الإنسانية همة (effort) أساسية وجوهرية تظل دائبة بها إلى غير حد على وجودها الذى هو عين جوهرها ، وأنه إذا كانت النفس هيئة صادرة عن القوة الإلهية اللامتناهية ، فهى لا تنقطع عن أن تفعل فعلها فتبذل همتها أبداً حتى تحفظ وجودها وتنميه على الدوام ضد كل العلل الخارجية ، وهذه الهمة هى الطلب الذى هو أصل فى كل الإنفعالات .

والإنفعالات عند سبينوزا أنواع : منها انفعالات أولية ، ومنها انفعالات ثانوية : فأما الإنفعالات الأولية فهى الطلب (Le désir) ،والفرح (La joie) ، والحزن (La tristesse) ، وهذه الإنفعالات الثلاثة هى التى تتولد منها كل الإنفعالات الأخرى (علم الأخلاق : حـ ٣ ، مطلب ١١ ، شرح) . ويشرح سبينوزا معنى الطلب فيقول إن الهمة إذا كانت متعلقة بالنفس وحدها فهى تسمى عندئذ إرادة (Volonté) ، وإذا كانت متعلقة بالنفس والجسم جميعاً فهى تسمى عندئذ نزوعاً أو ميلا (appétit) ، وهذا النزوع أو الميل ليس إلا ماهية الإنسان التى من طبيعتها أن يصدر عنها بالضرورة ما يصلح لحفظ بقاء الإنسان ، ولهذا كان متعيناً على كل إنسان أن يبذل همته . على أنه ليس ثمة فرق ما بين الطلب (désir) والنزوع (appétit) ، إلا أن الطلب متعلق عامة بأفراد الإنسان من حيث أن لهم شعوراً بنزعاتهم ؛ ومن هنا يمكن أن يعرف الطلب بأنه هو النزوع مع شعور الإنسان بذاته (علم الأخلاق : حـ ٣ ، مطلب ٩ ، شرح) . ولما كانت النفس خاضعة لتغيرات كبيرة ، وذلك إذ تكون منفعلة (passive) فتنتقل إلى كمال أكثر حيناً ، وإلى كمال أقل حيناً آخر ، فان هذه الإنفعالات هى التى تفسر لنا إنفعال الفرح والحزن . وبناء على هذا يعرف سبينوزا الفرح بأنه انفعال تنتقل به النفس إلى كمال أعظم ، كما يعرف الحزن بأنه انفعال تنتقل به النفس الى كمال أقل ، وكما يطلق على انفعال الفرح إذ يتعلق بالنفس والجسم اسم البسط أو المرح (chatouillement = Gaieté) وعلى انفعال الحزن اسم القبض أو الكآبة (mélancolie) (علم الأخلاق جـ٣ ، مطلب ١١ ، شرح) .

وأما الانفعالات الثانوية فهى ألوان متنوعة للانفعالات الأولية ، أو هى تنوعات لها ومشتقات منها ، الأمر الذى يمكن أن نتبينه فى وضوح وجلاء إذا وقفنا مع سبينوزا عند بعض الأمثلة التى تظهرنا على أن كل الانفعالات إنما ترجع إلى أصول أولية هى انفعالات الطلب والفرح والحزن : فالحب والكراهية ليسا انفعالين أوليين ، ولكنهما انفعالان مشتقان من انفعالى الفرح والحزن ، بمعنى أنك إذا أضفت إلى كل من الفرح والحزن معرفة العلل التى تولدهما ، فقد حصل لك عندئذ انفعال الحب وانفعال الكراهية (علم الأخلاق : جـ٣ ، مطلب ١٣ ، شرح) والرجاء ليس إلا فرحا قد يتحقق وقد لا يتحقق ، بمعنى أنه وليد صورة لشئ موجود فى الماضى أو فى المستقبل ، وليس تحققه يقينيا ؛ والخوف على العكس من هذا ، فهو حزن قد يتحقق وقد لا يتحقق ، وهو انفعال ناشىء من صورة لشقاء ليس يقينيا ؛ وأنت إذا أبدلت على أى وجه من الوجوه الشك باليقين بدلا من الرجاء أو الخوف ، فهنالك يحصل لك الأمن (Sécurité) أو القنوط (désespoir) ؛ والندم (repentir) هو شعور بالحزن مقرون بفكرة فعل ماض يخيل لنا أننا أنجزناه بحرية ؛ والغرور أو الخجل هما الفرح أو الحزن وقد ولدتهما فكرتا الاستحسان أو الاستقباح من جانب الآخرين (علم الأخلاق : حـ٣ تذييل) ؛ والحسد (L'envie) هو الكراهية التى تستولى على الإنسان فإذا هو يحزن لسعادة الآخرين

ويفرح لشقائهم ؛ والرحمة (La miséricorde) على العكس من هذا هى الحب الذى يستولى على الإنسان فإذا هو يفرح لسعادة الآخرين ، ويحزن لشقائهم ؛ والتواضع (L'Humilité) هو الشعور بالحزن لدى الإنسان الذى يتأمل عجزه وضعفه .

ولا يقف سبينوزا عند هذا الحد من تصنيف الانفعالات وتعريفها ، بل هو قد وقف أيضاً عند تحليل التعاطف وتعليله وقفة لعله كان فيها أسبق من آدم سمث Adam Smith إلى وضع قوانين التعاطف ودراستها دراسة دقيقة : فها هنا يصوغ سبينوزا مبدأ التعاطف على الوجه التالى : « إننا نجد فى أن نفعل كل الأشياء التى يخيل لنا أن الناس ينظرون إليها بفرح ، وإننا نكره الأشياء التى نعرف أنها تستلزم كراهيتهم » (علم الأخلاق : جـ ٣ ، مطلب ٢٩) : وها هنا أيضاً يلاحظ سبينوزا أن مجال التعاطف أوسع من هذا نطاقاً ، وذلك إذ يقول إن كل شئ تماثل طبيعته طبيعتنا إنما يجعلنا نستشعر له إلى حد ما تأثيراً شبيهاً بذلك التأثير الذى نرى أننا نستشعره فيه (علم الأخلاق : جـ ٣ ، مطلب ٢٧) ؛ ومن هنا كان الجهد الذى نبذله لكى يحب الآخرون ما نحب ، ويكرهوا ما نكره ؛ ومن هنا أيضاً لم يكن الفرح بزوال الشئ المكروه ليمضى دون أن تشوبه شائبة من حزن .

الجزء الرابع

فى عبودية الإنسان

أو فى قوى الإنفعالات

بعد أن فرغ سبينوزا من دراسة الإنفعالات من حيث هى فى ذاتها على الوجه الذى رأينا معه فى الجزء الثالث من كتابه (علم الأخلاق) ، نراه فى الجزءين الرابع والخامس يعرض لهذه الإنفعالات من حيث علاقاتها بسعادة الإنسان وكماله : فعلام تشتمل عبودية الإنسان وحريته بالنسبة إلى الإنفعالات ؟ وما هو الخير والشر ؟ وما هى الإنفعالات المحمودة والإنفعالات المذمومة ؟ وما هى سبيل الوصول إلى السعادة الحقيقية ، وإلى الحياة الأبدية ؟ كل أولئك موضوعات يتألف منها الجزءان الأخيران من كتاب (علم الأخلاق) ، وهما اللذان يورد المؤلف أحدهما بعنوان (عبودية الإنسان) ، ويورد الآخر بعنوان (حرية الإنسان) ، وكلاهما مرآة صادقة يتجلى على صفحتها المذهب الأخلاقى لسبيوزا

ولعل أول ما يظهرنا عليه سبينوزا هو سلطان الإنسان بعقله على الإنفعالات من ناحية ، وسلطان الإنفعالات على الإنسان بنفسه ، وعلى القوة التى لا تتناهى فى استعلائها علينا ، وهى قوة العلل الخارجية التى تولد فينا هذه الانفعالات من ناحية أخرى . أما كيف كان ذلك كذلك ، فهذا ما نتبينه مع سبينوزا هنا أولا فى الجزء الرابع ، ثم بعد ذلك فى الجزء الخامس : فاذا كان الانسان جزءاً بسيطاً من الطبيعة ، مفتقراً إلى كل الأجزاء الأخرى ، فانه لا يمكن أن يكون إلا علة جزئية غير تامة للتغيرات التى تعرض له (علم الأخلاق : حـ ٤ ، مطلب ٢ ، ٣ ، ٤) . ولكى يكون الإنسان خلواً من كل طلب أو رغبة حتى يكون فارغاً من كل انفعال ، فلا بد من أن تكون أفكاره كلها تامة ، ومن أن يكون هو لامتناهياً مثل الله حتى يكون حراً كذلك (علم الأخلاق : حـ ٥ ، مطلب ١٧) . ولكن الحقيقة هى أن الإنسان مقهور ضرورةً بالإنفعالات ، وأنه من حيث هو كذلك فهو إنما يتبع القاعدة العامة للطبيعة على قدر ما يتطلبها النظام الكلى للأشياء (علم الأخلاق : حـ ٤ ، مطلب ٥ ، نتيجة ٢) . على أن الإنفعالات ، وإن كانت قاهرة للإنسان من وجه ، إلا أنها مقهورة من

وجه آخر : يقهر بعضها بعضاً ، ولا ينقهر أحدها إلا أن يكون الإنفعال القاهر له أقوى منه . ولا تكفى معرفة الخير والشر لمنع أى انفعال من الوقوع ، إلا أن تكون هذه المعرفة بالخير والشر انفعالا متولداً من الشعور بالفرح أو الحزن (علم الأخلاق : حـ ١ ، مطلب ١٤) . والصراع الذي ينتهى بهذا الإنفعال إلى القهر ، وبذلك الإنفعال إلى الإنقهار ، إنما هو فى رأى سبينوزا صراع بين قوتين مقدورتين حيث تستعلى ضرورةً إحداهما على الأخرى فى هذا الصراع ، فاذا إحداهما قاهرة ، والأخرى مقهورة .

ويحصى سبينوزا بعد هذه الأحوال أو الظروف الرئيسية التى من شأنها أن تزيد أو تنقص فى قوة الإنفعال . ولما كانت الأشياء متساوية ، كان التفاوت بينها بنسبة اتصالها بالإنفعالات التى تتفاوت قوة وضعفاً : ذلك بأن الإنفعال الذى تمثل لنا المخيلة الشيء المتعلق به كأنه حاضر إنما هو انفعال أقوى من هذا الإنفعال الآخر الذى تمثل لنا المخيلة الشيء المتعلق به كأنه ماض . وكذلك الشيء الذى نتصوره على أنه ضرورى إنما يثير فينا انفعالا أقوى مما يثيره شيء ممكن أو حادث (Contingent) ، لأن مخيلتنا لا تمثل لنا شيئاً من شأنه أن يعزلها عن الوجود . هذا فيما يتعلق بمعرفة الشيء الحاضر والماضى ؛ أما إذا كانت هذه المعرفة تتعلق بشيء فى المستقبل ، فسرعان ما يضيق عليها الخناق فى يسر ، وذلك بحكم الرغبة فى خير حاضر . وعلى هذا النحو تكون الكيفية التى غالباً ما تسيطر بها أسوأ الإنفعالات على معرفة الخير والشر ؛ ومن ثم تستحيل مشاهدة الشعور الكلى (Conscience universelle) مشاهدة مواتـــية للحرية ، إلى قهر ضرورى يقع من انفعال أقوى على انفعال أضعف ، وتلك هى مملكة الإنفعالات وقانونها كما يتصورهما ويصورهما سبينوزا . وها هنا فى هذه المملكة وفى نظامها ، تتبين أسباب الزعزعة والعجز لدى الناس فيما يقصرون دونه من اتباع قواعد العقل . أما ما هى قواعد العقل هذه ، وما هى الإنفعالات التى تساير أو تنافر هذه القواعد ، فذلك ما نتبينه مع سبينوزا من خلال علم الأخلاق .

على أن نظرية المعرفة عند سبينوزا لا تبدو من وجه واحد ، وإنما هى تبدو من وجه حليفة للمذهب التجريبى (L'empirisme) ، وتبدو من وجه آخر ربيبة للمذهب المثالى (L'idéalisme) : فهاهنا وها هنا يخيل لنا ، ونحن نقرأ الجزء الأخير من كتاب سبينوزا فى (علم الأخلاق) ، أن المتحدث هو هوبز تارة ، ومالبرانش تارة أخرى ، وأبيقورس طوراً ، ومؤلف زاهد أطواراً ، وكل أولئك أوجه من التناقض الذي يظهر عند سبينوزا ويمكن أن نرده معه إلى أصوله الحقيقية فى مذهبه الأخلاقى ، كما نبينه فيما يلى :

يرى سبينوزا أننا لكى نتبع العقل ، فليس من الضرورى أن نقف من أنفسنا موقف الحرب لأنفسنا ، لأن العقل لا يأمرنا بشيء غير ملائم لطبيعتنا : فحبنا لأنفسنا ، وسعينا وراء ما هو نافع حقاً ، وبذلنا ما نبذل من جهد حتى نحفظ وجودنا علينا ما دام لنا هذا الوجود ، والجد فى طلب الخير والنفرة من الشر على الجملة ، كل أولئك يأمرنا به العقل . ويعرف سبينوزا الخير على نحو ما يعرفه هوبز بأنه كل مانعرف يقيناً أنه لا بد من أن يكون نافعاً لنا ، كما يعرف الشر بأنه هو الذى يحول دون الخير . وبعبارة أخرى يقال مع سبينوزا إن خير الإنسان هو كل ما ينفع فى حفظ وجوده عليه ، أو هو كل ما يزيد فى قدرته على الفعل ، كما يقال معه أيضاً إن شر الإنسان هو كل ما يضاد حفظ وجوده عليه ، أو هو كل ما ينقص من قدرته على الفعل .

والعقل لايلزم الإنسان بأن يحفظ وجوده عليه فحسب ، بل هو يلزمه أيضاً بألا يحافظ على نفسه

إلا من أجل نفسه ، وأن يصطنع فى هذه المحافظة كل الوسائل الممكنة : فكلما عمل الإنسان على حفظ وجوده وإنمائه، كان إنسانا أفضل مما كان ، لأنه أصبح وله من القدرة والكمال حظ أوفر مما كان له ؛ وكلما أهمل الإنسان عنايته بحفظ بقائه ، كان نصيبه من العجز أكثر : لأنه لا يستطيع أن يقصر فى هذه العناية إلا إذا كان للانفعالات ولفعل الأسباب الخارجية عليه سلطان وقهر . وترجع أفضلية الإنسان فى حاله الأولى عنه فى حاله الثانية ، إلى مايعتقده سبينوزا من أن الجهد الذى تدأب النفس على بذله فى حفظ الوجود على صاحبها هو الفضيلة الأولى والعليا التى لايمكن أن تتصور فضيلة أخرى قبلها أو أعلى منها (علم الأخلاق : حـ ٤ ، مطلب ٢٢) .

ومهما يكن من أمر الطابع الأبيقورى الذى يبدو على مذهب سبينوزا الأخلاقى ، فإن الذى لا شك فيه هو هذه الآية الكبرى التى تتجلى فيها نتيجته العليا وهى هذه النتيجة القائمة على مبدأ محافظة الإنسان على نفسه من أجل نفسه ووحدة الخير مع مصلحته الخاصة . أما هذه الآية الكبرى فإنها تتمثل فى التأمل فى الله وفى حبه : ذلك بأن الإنسان من حيث هو فكرة لله ومن حيث أن الفكر هو جوهره ، وأنه لابد له من أن يأخذ نفسه بقواعد العقل ، فقد ترتب على هذا كله أن يكون الفكر هو ما ينبغى أن يحب فيه ، وأن يكون هذا الفكر هو ماينبغى أن تعمل كل جهوده على حفظه وإنمائه .

وإذا كان ذلك كذلك ، فكيف يتهيأ للنفس إذن أن تكبح جماح الانفعالات ، وألا تستجيب لها حتى تلبى دعوة العقل ؟ وإذا كانت النفس خاضعة بالضرورة لسلطان الانفعالات فكيف يتهيأ لها إذن أن تخلص من هذه الإنفعالات ، وأن تتحرر من رقها؟ وإذا كانت النفس خلوا من كل حرية ، فماذا عسى أن يصلح لها من قواعد ؟ الحق أنه ليس ثمة أخلاق بالمعنى الحقيقى ، ولا ثواب أو عقاب ، إلا أن يكون هناك هذا العنصر الجوهرى وهو عنصر الحرية . والحق أيضاً أن سلطان النفس على الإنفعالات ليس أقل خضوعاً للضرورة من سلطان الإنفعالات على النفس ، مع هذا الفارق وهو أن الضرورة فى سلطان النفس على الإنفعالات إنما هى ضرورة داخلية نابعة من ذات النفس وليست خارجة عنها .

فإذا عرفنا هـــذا كله فى وضوح وجلاء ، فها نحن أولاء نصل مع كتاب سبينوزا فى (علم الأخلاق) إلى نهاية الجزء الرابع منه ، حيث يعطينا صورة رائعة للإنسان الحر مطابقة لمبادئه : فمن هذه الصورة نتبين أن هذا الذى ينقاد للإنفعالات إنما هو الإنسان الضعيف الشقى المسترق ، وأن هذا الذى ينصت إلى صوت العقل إنما هو الإنســان القوى ، الإنسان السعيد ، الإنسان الحر : أولها يفعل سواء أراد أو لم يرد دون أن يعرف مايفعل ، وثانيهما لا يطاوع إلا نفسه ، ولا يفعل شيئاً إلا أن يكون عارفاً بمـا هو خير وأفضل حتى يفعله فى الحياة ، وعالماً بما يتطلبه هو نفسه أكثر مما يكون عالماً بما يتطلبه غيره . إن الإنسان الحر ، أو الإنسان الذى يحيا على مقتضى العقل ، إنما يكون بمنجاة من القلق والخوف ، ولا يتفكر فى شئ أقل مما لا يتفكر فى الموت ، لأنه لا يتفكر إلا فى أن يحيا ، وأن يعمل ، وأن يحافظ على وجوده ، وفقاً لقاعدة مصلحته الخاصة ، إذ الحكمة هى — كما يقول سبينوزا معارضاً لأفلاطون — هى تأمل للحيـاة لا للموت . إن هذا الإنسان الحر حقاً يعرف كيف يتعانق فيه الإقدام والخوف سواء بسواء ؛ كما أنه يعرف كيف يتجنب أو يتلمس مواطن الصراع بروح حضورها لديه فى الحالين سواء . إنه يأخذ نفسه بأن تخلص نفسه إلى اسداء الفضل وأداء الخير

إلى الجهال حتى يكون بمأمن من بغضهم ، ولايكون مذعناً لرغباتهم الجامحة . إنه يعمل بإيمان راسخ دائماً ، حتى يحفظ وجوده . إنه لا يلجأ إلى الغدر لأنه لا يطاوع إلا العقل الذى لايدل على الغدر أبداً ، ولو قد كان العقل دليلا على الغدر ، وكان الإنسان متبعاً للعقل ، لترتب على ذلك أن يكون الإنسان دليلا لغيره على طريق الغدر ، وهذا محال : لأن ذلك إنما يعنى أن الإنسان لا يستطيع أن يوحد قوى أشباهه ، ولا أن يوجه جهودهم إلى الخير إلا عن طريق الغدر ، وأنه لن يكون عندئذ ثمة شئ حق هو شركة بينه وبينهم . وإن هذا الإنسان الحر لهو هذا الذى يشعر فى حياته الاجتماعية فى ظل القانون العام بأنه أكثر حرية مما لو كان فى حياته الفردية منعزلا عن غيره لا يصدع إلا بأمر نفسه ، وهاهنا فى حياة اجتماعية كتلك لا يكون الإنسان الشاعر بحريته على هذا الوجه مطاوعا للقانون عن خوف ، ولكن عن ذات عقله ؛ وهاهنا أيضا تراه فى دأبه على حفظ وجوده على مقتضى العقل لا يعمل إلا وفقاً للقاعدة العامة وتبعاً للمنفعة العامة .

وينتهى هذا كله بسبينوزا إلى نهاية قوامها حياة عقلية آمنة من ناحية ، وحياة روحية وادعة من ناحية أخرى ، وهما هاتان الحياتان اللتان تجدهما النفس الإنسانية فى ظل الحرية قائمة على دعائم من فكرته الرئيسية وهى أن كل شىء إنما يلزم عن ضرورة الطبيعة الإلهية ، وتلك لعمرى فكرة تجد النفس بين أحضانها سكينتها وطمأنينتها ، إذ ماذا عسى أن يطمح إليه العقل ، أو تصبو إليه الروح إلا أن يكون ما يلائم النظام الضرورى للأشياء ! وهذا يعنى بعبارة أخرى من عبارات سبينوزا نفسه أن خير جزء فينا ينبغى أن يكون موافقا للطبيعة (علم الأخلاق : حـ ٤ ، مطلب ٦٧ — ٧٣ ، تذييل) ، وإذا كان ذلك كذلك ، فقد ترتب عليه أن الغاية القصوى التى يرى سبينوزا أن مذهبه الأخلاقى ينتهى إلى تحقيقها إنما هى أمن النفس الذى تحصل عليه هذه النفس بتأمل ما هو ضرورى أزلى أبدى ، وبمعرفة الوحدة الذاتية التى بين أنفسنا الجزئية وبين الضرورة الكلية للأشياء التى ليست فى حقيقتها إلا هيئات للطبيعة الإلهية .

الجزء الخامس

فى قوة العقل

أو

فى حرية الإنسان

لعل أول ما يلاحظه المتأمل فى الجزء الخامس من كتاب سبينوزا (علم الأخلاق) ، هو أنه يفصل فى هذا الجزء ما أجمله أو أشار إليه فى الأجزاء الأربعة بصفة عامة وفى الجزء الرابع بصفة خاصة : فهو يبسط القول فى الإبانة فى هذا الجزء الخامس عن الحقيقة والأمن والسعادة وأين النفس الإنسانية من هذا كله ، أو أين هذا كله من النفس الإنسانية . كما يتحدث مسهباً فى استكناه حب الإنسان لنفسه من ناحية ، وحب الإنسان لغيره منطوياً على حبه لنفسه ، وعلى مبدأ محافظة الإنسان على نفسه من ناحية أخرى ؛ وهو يعرض بعد هذا كله لوحدة حب الإنسان لله ، وحب الله للإنسان ، وللانفعالات المحمودة والإنفعالات المرذولة كما يصور الإنسان وقد تحرر من ربقة الإنفعالات ، ويستعمق ما ينبغى أن يتوفر فيه من شروط تكفل له الخلود أو الحياة فيما هو أزلى ومع ما هو أبدى .

يرى سبينوزا أن المعرفة وحدها لا الحرية هى

التى تجعل للنفس بعض السلطان على الإنفعالات ، وأن العقل وحده هو القوة التى يتصرف بها الإنسان تصرفا يمكنه من كبح جماح إنفعالاته (علم الأخلاق : حـ ٥ ، مطلب ٤) : ومعنى هذا أنه على قدر معرفتنا بالإنفعال ، يكون حظ النفس من هذا الإنفعال ، أى أنه كلما كانت معرفتنا بالإنفعال على وجه أحسن كانت النفس فاعلة لامنفعلة . ولما كان كل إنفعال إنما هو فكرة لميل من ميول الجسم ، وكان منطوياً على شىء مشترك عام يمكن أن يصبح موضوعاً لفكرة تامة ، فقد ترتب على ذلك أن أصبح كل إنفعال قابلا لأن يستحيل إلى فكرة واضحة متميزة ، وبهذا ، أعنى مع سبينوزا أننا بمعرفتنا لأنفسنا معرفة مطردة فى وضوحها نستطيع أن نتمكن من الإقلال من شأن الإنفعالات ، وهذا هو ماينبغى أن نصبو إليه ، ونعمل عليه ، بحيث تستحيل أفكارنا غير التامة إلى أفكار تامة ، وهنالك تتحول النفس عن الإنفعال الذى يعمل عمله فيها إلى الشىء نفسه الذى ينبغى على النفس أن تعمل الفكر فيه بحيث تدركه فى وضوح وتميز ، وهنالك ستجد عند هذا الشىء سكينتها الكاملة . ويتبين تفاوت الإنفعالات فى القوة والضعف بتفاوت المعارف والأفكار فى التمام والنقص ، إذا لاحظنا مع سبينوزا أنه كثيرا ما يشتد بنا إنفعال الحزن لفقدان شىء ما قد إقتنعنا بأنه ليس ثمة لدينا وسيلة ما للمحافظة عليه ، وأنه قليلا ما يكون حظنا من هذا الإنفعال ، وذلك بالقياس إلى كل ما ندركه ونحكم عليه بأنه طبيعى وضرورى (علم الأخلاق : حـ ٥ ، مطلب ٦) . ومعنى هـــذا كله أن كلا من المنطق وعلم النفس لدى سبينوزا ، إنما يقوم على قاعدة أساسية واحدة : هى تلك التى يعمل بها الإنسان على تحويل أفكاره غير التامة الملبسة إلى أفكار تامة حقاً .

ومن شأن الانفعالات أن تولد فى النفس آلاما وأحزاناً واضطرابات من قبيل ما يقع فى الخوف والقلق واليأس ، وذلك عند ما تتعلق النفس بأشياء حادثة زائلة فانية لا تلبث أن تقع لها حتى تفلت منها وتبين عنها . ولكن النفس وقد تسامت عن هذه الأشياء العارضة ، وارتقت إلى الأشياء الدائمة ، وإلى الأزلية ، وإلى الله ذاته ، فإنها حين ذاك لن تتعلق إلا بالأزلى الباقى على قدر إعراضها عن الحادث الفانى ؛ ومن هنا قال سبينوزا أن تصور الأشياء على أنها أزلية ، إنما هو تصور لها فى صلتها بالله ؛ وقال أيضاً : « إن نفوسنا من حيث هى تعرف أجسامها وذواتها فى ظل ما تضفيه الأزلية عليها ، إنما تحصل عندئذ على قنية معرفة الله ، فإذا هى تعرف أنها فى الله ، وأنها متصورة بالله » (علم الأخلاق : حـ ٥ ، مطلب ٣٠) . والنفس فى ارتفاعها إلى هذه المرتبة العليا من المعرفة ، إنما تصل إلى هذه الذروة التى تتأمل منها فى كل شئ ، فإذا هى قد تأملت فيه ذات الله الأزلية اللامتناهية ، وإذا هذا التأمل يصبح منها بمثابة المعين الذى لا ينضب ، ولا يغيض ما يمتلأ به ويفيض منه من أمن وسكينة وسعادة . ومن ثم كانت معرفة الله التى لا يتصور أى شئ إلا بها ، وكان الحب العقلى الذى يقارن هذه المعرفة ، هما الغاية القصوى والخير الأسمى للنفس الإنسانية ، ولا سبيل إلى أن يوجد خارج هذا الحب ولا على أى وجه من الوجوه أمن كامل ، أو سعادة حقيقية ، أو حرية إنسانية (علم الأخلاق : حـ٤ ، مطلب ٢٨ ؛ حـ٥ ، مطلب ٢٧) .

على أن مبدأ محافظة الإنسان على نفسه ودأبه على

حفظ وجوده على نفسه من أجل نفسه ، ليس عند سبينوزا مصدراً يستخلص منه حب الله فحسب ، وإنما هو يستخلص منه كذلك حب غيره من الناس : لأن الإنسان بسيره فى الطريق الذى يؤدى إلى الخير الأسمى إنما يعمل فى نفس الوقت لخير الآخرين كما يعمل لخير نفسه ، ولأن الخير الحق إنما هو قسمة أو شركة بين كل أفراد الإنسان ، ولأن هذا الحب أو ذاك ليس من شأن أحدهما أو كليهما أن يثير الغيرة والحسد فى نفس أى إنسان ، أو يؤدى إلى التقاطع والتنابذ بين أى فردين من أفراد الإنسان ، بل هو يسلم إلى التراحم والتحاب واتحاد القوى على وجه أشد وأقوى مما كان ، بحيث لو قد تواصل وتحاب وتراحم فردان ، لكان منهما فرد واحد هو أقوى ضعفين مما لو كان كل منهما منفرداً ؛ ومن هنا لم يكن أنفع للانسان من الإنسان الذى يسير على مقتضى العقل ، وفى حدود قوانين الطبيعة الإنسانية التى تلائم بالضرورة طبيعة كل إنسان .

وآية هذا كله التى تدل دلالة واضحة على طبيعة الحبين الإلهى والإنسانى ، هى أن سبينوزا يرى أن الحب العقلى النابع من النفس الإنسانية إلى الذات الإلهية ، إنما يصدر عن الحب العقلى الفائض من ذات الله لذات الله ، لأن الله من حيث هو محب لذاته ، إنما يحب كذلك الناس الذين هم هيآت لذاته ، ولأن حب النفس لله ، إنمـا هو جزء من عين حب الله اللامتناهى لكماله اللامتناهى ، وهذا يعنى بعبارة أخرى من عبارات سبينوزا أن حب الله للانسان ، وحب الإنسان لله ليسا فى الحقيقة إلا حباً واحداً .

وإذا كانت تلك هى ثمرات المعرفة الواضحة للانفعالات ، ولاستحالة الأفكار غير التامة إلى أفكار تامة ، وذلك على الوجه الذى رأينا مع سبينوزا أنه يؤدى بنا إلى الكمال والسعادة ، إلا أن هذه الثمرات تبدو أينع وأروع إذا عرفنا أنها لا تؤدى بنا إلى الكمال والسعادة فى الحياة الموقوتة فحسب ، وإنما هى تؤدى بنا فوق هذا إلى الخلود والبقاء فى الحياة الدائمة . وها هو ذا سبينوزا يعرض فى الصفحات الأخيرة من كتابه (علم الأخلاق) للنفس من حيث استمرارها مستقلة عن الجسم ؛ وهنا قد يسأل سبينوزا عما عسى أن تكونه هذه النفس مستقلة عن الجسم ، وهى هذه التى تتصل به اتصالا ضرورياً ؟ وأى خلود هذا الذى يكون لمجموعة من الهيئات أو لهذه الهيئة المركبة التى هى النفس الإنسانية ؟ وهنا يجيب سبينوزا بأن من هذا الخلود جزء تستطيع بعض نفوس الصفوة أن تمنحه لنفسها ، وذلك بأن ترفع نفسها إلى أسمى مراتب العقل وأعلى درجات المعرفة ، إذ أن سبينوزا يذهب الى أن كل الأفكار التى لا تتخذ من الله موضوعاً لها انما هى من حظ الموت والفناء ، على حين أن كل الأفكار التى تتخذ موضوعها من الله انما هى من حظ الحياة والبقاء ، أو هى من حظ الخلود والأبدية ؛ ويذهب أيضاً إلى أن الإنسان يستطيع أن ينتزع أحسن جزء فيه من يد الموت ، وعندئذ يصبح ماتفقده نفوسنا بفساد الجسم وكأنه لاشىء ، وذلك إذا قيس بما ستحتفظ به هذه النفوس فى أحضان الخلود والأبد ؛ ويذهب فوق هذا كله إلى أنه على الرغم من أننا ليس لدينا أى ذكرى لوجودنا قبل الجسم ، إلا أننا نشعر ونعاين أننا خالدون (علم الأخلاق : حـ٥ ، مطلب ٢٣ شرح) ومع ذلك فإن الخلود كما يفهمه سبينوزا إنما هو خلود بلا ذاكرة ولا شعور ، وإنما هو غاية الإنسان وثوابه الذى يستحقه على ما يقدمه من جهود بين يدى كماله .

والناس ليسوا سواء فى حظوظهم من هذا الخلود ، وإنما يزيد حظ كل منهم من هذا الخلود أو ينقص بمقدار ماتعرض نفسه عن الأمور الزائلة الفانية لتقبل على الأمور الدائمة الباقية ، أى بمقدار مالديها من الأفكار التامة وغير التامة . ولكن النفس التى تغلب هذا الخلود على كل النفوس الأخرى ، وتحيله إلى خلود فى الحياد الآجلة ، كما تظفر بالكمال والسعادة فى الحياة العاجلة ، وذلك بفضل العقل الذى يحيل الأفكار غير التامة إلى أفكار تامة ، إنما هى النفس التى تستطيع أن تصل ، بفضل الجهد الأسمى للعقل والفضيلة ، إلى تأمل ذات الله فى كل شىء ، وهنالك تستظل بظل الخلود فإذا هى تدرك أن ما يفنى مع الجسم ليس شيئاً بالقياس إلى مايبقى منها بعد الموت (علم الأخلاق : حـ٥ ، مطلب ٣٨ ، شرح) .

وهكذا نرى مع سبينوزا كيف ينتهى مذهبه الأخلاقى فى هذا الكتاب القيم إلى نهاية مشرقة وغاية متألقة أخص خصائصهما هذه الصبغة الروحية التى أشرقت وتألقت بها جوانب عقله وقلبه وروحه ، فإذا هو يحيا ، ويريد غيره أن يحيا ، حياة عقلية كاملة من ناحية ، وحياة روحية فاضلة من ناحية أخرى ، وكلتا الحياتين هما اللتان تكفلان لمن يحياهما الحياة السعيدة الراضية الباقية سواء فى هذا العالم ، وفى العالم الآخر ، حيث تتفيأ النفس ظلال الحق والخير والوجود ، وتستضئ بأنوار الأزل والأبد والخلود .